إعداد
حلمي علي شعبان

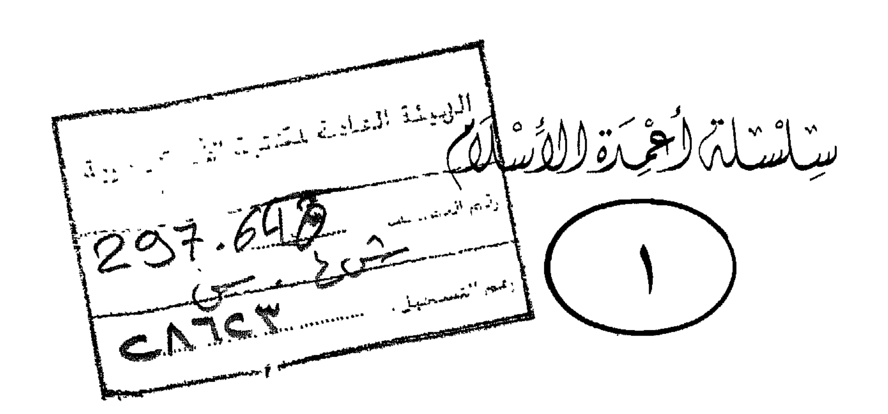
أبو بكر الصديق



١

أعمدة

بيروت - لبنان



سلسلة أئمة الإسلام

١

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

إعداد
حلمي علي شعبان

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

هذه السلسلة

بسم الله الرحمن الرحيم

«أعمدة الإسلام» سلسلة دينية تاريخية ثقافية. فيها أتناول سير شخصيات عظيمة في التاريخ الإسلامي ساهمت في توطيد دعائم الدين الحنيف وكان لها فضل في شرف السبق إلى الإسلام والاشتراك في ميادين الجهاد.

وهي مكتوبة بأسلوب قصصي مشوّق ومسندة بأحداث تاريخية مستقاة من مصادر أساسية في تكوين التاريخ الإسلامي.

ومهما كتب حول سير أولئك العظام، فإن كل جيل طالع من المسلمين بحاجة إلى معرفة تاريخه وكيفية انطلاق دينه في تلك السيرة المباركة التي قادها أشرف الخلق وسيد المرسلين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

أما سيرة رسول الله ﷺ. فقد أُدرجت ضمن سلسلة «الأنبياء».

أسأل الله تعالى التوفيق.

وآمل أن تكون سيرة أبطالنا العظام خير معين لنا في حياتنا وحياة أولادنا وأحفادنا. فنكون خير خلف لخير سلف.

حلمي شعبان

أبو بكر الصديق

١ ـ اسمُه ونسبُه

هو عبدُ الله بنُ عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرةَ بن كعب بن لؤي القرشِيّ التيميّ.

وكنيةُ والدِه: أبو قحافة.

وأمه أمُّ الخير سلمى بنت صخر بنِ عامر بنِ كعب بنِ حنسن بنِ تيم بنِ مرةَ، وهي ابنةُ عمِّ أبي قحافة.

وينتسبُ أبو بكر رضي الله عنه إلى قبيلة شريفة من قبائلِ قريش في مكةَ المكرمة لها دورٌ ووزنٌ في المجتمع المكي.

فقبائل مكةَ المكرمة توزَّعت المناصِبَ والاخْتصاصَ فيما يعود لأمرِ الكعبةِ المشرَّفة وإدارة شؤونِ الحرم.

فكانَ لبني عبدِ مناف السقايةُ والرفادة.

ولبني عبد الدار اللواءُ والحجابةُ والنّدوة.

كما كانَتْ قيادةُ الجيش ـ الأعنة[1] والقبة ـ لبني مخزوم قبيلةِ خالد بن الوليد.

---

(١) الأعنة: معناها هنا: الخيول.

وتولت قبيلةُ تيم بن مرةَ أمْرَ الدِّياتِ في الجاهلية . وحينَ شبَّ أبو بكر رضي الله عنه تولّى زعامةَ قبيلته .

وكان لبني تيم بنِ مرّةَ مكانةٌ عالية بينَ قبائلِ العرب . فعندَما أراد المنذرُ بنُ ماءِ السماء ملكُ الحيرةِ أَنْ يقبضَ على امرىء القيس بن حجرٍ الكندي ، أجارَهُ المُعَلّى التيميّ فقال فيه :

أقَرَّ حشا امرىء القيسِ بنِ حجرٍ
بنو تيمٍ مصابيحُ الظَّلامِ .

وعَرِف بنو تيم بنِ مرة بعد ذلك بلقبِ : مصابيحِ الظلام .

٢ ـ شخصيَّتُه

امتازت شخصيّةُ أبي بكرٍ رضي الله عنهُ بجمالِ الخَلْق والخُلُق . كما جمعَ صفاتِ الرجولةِ الكاملة .

فهو جميلُ الخلقة ذو إطلالةٍ وبهاء . أبيضُ اللون . نحيفُ الجسد . طويلُ القامةِ . خفيفُ العارضَيْنِ . معروقُ الوَجْهِ . غائرُ العينيْنِ . ناشىءُ الجبهةِ . في جسْمِهِ قوّةٌ وصلابَة .

وهو سهلُ العيش . أليفُ المعشر . رقيقُ الطبعِ . رزينُ التفكير . راجحُ العقلِ . حَسَنُ الرأيِ . صادِقُ القَوْل . خالَفَ بني قومِهِ وشبابَ المجتمع المكّيّ في كثير من العادات والمواقف . فهو لم يشرَبِ الخَمْر لا في جاهليةٍ ولا في

إسْلام. كما أنَّ حياته خَلَتْ من كلِّ مُجونٍ وتهتك شأنَ شبابِ عصْرِه.

وتعلَّم أبو بكرٍ رضي الله عنه. وأصابَ قسماً كبيراً من المعرفةِ والثَّقافة. فأجادَ القراءَة والكتابَة. واطَّلع على أحوال العرَبِ وأنْسابِهِمْ وتاريخِهِمْ. فكانَ نسَّابَةَ مكَّة المكرمة يقصده الناسُ لِعِلْمِهِ وفهْمِه وحسْنِ معشَرِه.

وقد وصفَهُ ابنُ هشامٍ في «السيرة النبوية» بقَوْلِهِ:

ـ «كانَ أبو بكرٍ رجُلاً مألفاً[1] لقومِهِ. محبَّباً سَهْلاً. فكانَ أنْسبَ قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كانَ فيها من خيرٍ وشرّ. وكانَ رجلاً تاجراً ذا خُلقٍ ومعروف. وكانَ رجالُ قومِهِ يأتونَهُ ويألفونَهُ لغير واحدٍ من الأمر: لعلمِهِ وتجارَتِهِ وحسنِ مجالَسَتِه».

وتعاطى أبو بكرٍ رضي الله عنهُ التجارَة فنجح فيها نجاحاً كبيراً. وكانت تجارتُه في الألبسة والأقمشة، وهي مهنةٌ تحتاجُ إلى ذوقٍ رفيعٍ وتهذيبٍ عالٍ في التعاطي مع الناس، وحسٍّ جماليٍّ كبيرٍ في حسنِ الاختيار ونعومةِ المعاملة.

وهو إلى كلِّ هذه الصِّفاتِ السهلةِ في شخصيَّتِه، كانَ يُخفي عَزْماً وتصميماً وصلابة مواقِف.

---

(١) مألفاً: أليفاً.

٣ ـ إسلامُهُ

نجحَ أبو بكر رضيَ الله عنه في ميدان التجارة، وأَصابَ ثروةً كبيرةً من وراءِ ذلك. فاقْتَنى قطعانَ الإبِلِ والغَنمِ شَأنَ أثرياءِ مكةَ المكرمة في ذلك الوقت.

وسكن أبو بكرٍ رضي الله عنه في الحيِّ الذي يعيشُ فيه تجّارُ مكةَ المكرَّمَة وأغنياؤها. وفي نفسِ الحيِّ الذي تعيشُ فيه السّيدة خديجة بنتُ خويلد أمُّ المؤمنين رَضِيَ الله عنها زوجُ رسولِ الله ﷺ.

وهناكَ عَرَفَ محمدَ بنَ عبدِ الله عليه الصلاة والسلام وعرَفَ فيهِ الصِّفاتِ الكاملة والنَّقاء المطْلق في سلوكِهِ وتصرُّفاتِه. فصادقَهُ وآلَفهُ وكان خيرَ رفيقٍ له. ولعلَّ التَّقارُبَ في السِّنِّ جمَعَهُما في صداقة لم تَنْفصِمْ عُراها إلّا بالموت. فهو يصغرُ النبيَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بسنتَيْنِ وبضعةِ أشهر.

وبعد أن نزلَ الوحْي على محمدِ بنِ عبدِ الله عليه الصلاةُ والسَّلام، وبعثه الله نبيّاً لهدايةِ البشر، واخْتارَهُ رسولاً لنَشْر رسالتِه، تذكَّر النبيّ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ صديقه ورفيقه أبا بكر وما يَعْلَمُه فيهِ من رجاحَةِ العَقْلِ وسُرْعَةِ الفَهْم. وعرضَ عليه الإسْلامَ فلم يتردَّدْ لحظةً واحدة. بل اسْتجابَ لدعوةِ الحقِّ وآمنَ بكلِّ ما قالَهُ محمدُ بنُ عبدِ الله عليْهِ الصلاةُ والسلام.

وقد حدَّثَ أبو جعفر بن السَّمين عن يونسَ بنِ بكير عن

ابن إسحاق عن محمدِ بنِ عبدِ الرحمن بنِ عبد الله بن الحصين التميمي أنَّ رسولَ الله ﷺ قَال:

- «ما دعَوْتُ أحداً إلى الإسلام إلاّ كانَتْ عندَهُ كبوةٌ وتردَّدَ ونظَر. إلا أبا بكرٍ ما عكَم[1] حين ذكَرْتُه لَهُ ما تردَّد فيه[2].»

٤ - الصّاحِب

لم يكنْ أبو بكرٍ رضِيَ الله عنه، مجرَّدَ مسلم آمَنَ بِرسالةِ محمدِ بنِ عبدِ الله عليه الصلاةُ والسَّلام. بل أخذ على عاتِقِهِ مشاركَتَهُ في نشْر رسالتِه.

وكانَ لأبِي بكر رضِيَ الله عنه أصدقاء يماثِلونَـهُ فَهْماً ورجاحة عقلٍ فاتَّصل بِهمْ ودعاهُمْ لتلبية نداءِ الحقّ ونبذ كل كفرٍ وشركٍ بالله عز وجلّ.

واستجابَ لدعوةِ أبي بكر رضِيَ الله عنه خيرةُ الصحابةِ منَ المسلمين المتقدّمين وتابعوه على الإسلامِ أمثال:

«عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدةَ بن الجراح، وكثيرين غيرهمْ من خيرةِ أهل مكةَ المكرمة.»

ولَم يقِفْ أبو بكرٍ رضِيَ الله عنه عندَ حدودِ الدعوةِ إلى

---

(١) ما عكم: ما انتظر وما تَحَبَّسَ وما عدل

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير: ج٣. ص٣٠٦

الإسلام. بل وَهَبَ ذاتَهُ لتلكَ الرسالة، بمالِهِ ونفْسِه وكلِّ ما يملِكُ في دُنْياهُ.

فقريش التي ساءَها قيامُ دعوةٍ لِنَبْذِ أصنامِها وتغييرِ عاداتها وسلْبِ امْتيازاتِها وإشاعةِ العدْلِ والسَّلام والمساواةِ بينَ كل الناس، اسْتَنْفَرَتْ كلَّ قواها لمنْعِ تلكَ الدعوةِ من الانتشارِ. ووجَدَتْ في ترهيب[1] المُسلمينَ الأوائِلِ وسيلةً من وسائِلِ ذلكَ القَمعِ والمنْع.

واخـذَتْ قريش تتعـرَّض للمسلمينَ، وخاصَّـةً أولئِكَ العبيد الضِّعاف الذين لا قبيلَةَ لهُمْ تَحْميهم وتَمْنَعُهُم بالعذابِ الشديد وإلْحاقِ الأذِيَّة الجَسَدِيَّةِ بهم.

ولـم يهنْ ذلكَ الأمرُ على أَبي بكرٍ رضِيَ الله عنه، فبذَلَ المالَ الكثيرَ لِعَتْقِ[2] أولئكَ العبيد وتحريرِهِمْ من نيرِ العبوديَّـةِ لإيمانِه أَنَّ الإنسانَ أَخٌ للإنسانِ.

وفي أَحدِ الأيامِ مرَّ أبو بكر رضي الله عنهُ فشاهَدَ بلالَ بنَ رباحٍ الحبَشِيّ مؤذِّنَ رسولِ الله ﷺ، مـرمِيّاً على الـرِّمالِ الحارقةِ وحجرٌ كبيرٌ على صدْرِهِ وضَعَهُ سيِّدُهُ وبلالٌ يردِّد:

ـ أَحَد . . . أَحَد

(١) ترهيب: تخويف.

(٢) عتق: تحرير.

فعرض أبو بكرٍ رضِيَ الله عنهُ شراءَ بلال فوافَقَ سيِّدُه. ثمَّ أَعْتَقهُ بَعْدَ شرائِهِ وأَصْبَحَ مولاهُ.

كما اشْتَرى عامرَ بنَ فهيرة وأَعْتَقهُ ثم كلَّفَهُ برعاية أَغْنامِه. ولم يَـرُدَّ على معارضةِ أَبيه أَبي قحافة على تبذيرِ مالِهِ في شراء العبيدِ المسلمينَ وتحريرِهِمْ. بل اشْتَـرى زنيرة بنتَ عبيس والهنديّةَ جاريَةَ بني مؤملٍ وابْنَتَها.

وفي هذا المجال حدَّثَ ميمونُ بنُ إسحاقَ بن الحسن الحنفي عن أحمد بنِ عبدِ الجبار العطاردي عن أَبي معاويَة الضرير عن الأعْمش عن أَبي صالحٍ عن أَبي هريرَة قالَ:

ـ «قالَ رسولُ الله ﷺ:

ـ ما نفعني مالٌ قطُ ما نفعَني مالُ أَبي بكر. قالَ أبو بكر:

ـ وهل أَنا ومالي إلاّ لكَ يا رسولَ الله.[1]»

ولم يسلَمْ أبو بكرٍ رضِيَ الله عنهُ من التعرّض للأذِيَّة. كما لم يسلَمْ صاحِبُ الرسالة عليه الصلاة والسلام منها. وما مِنْ مرة شاهَد أبو بكرٍ قريشاً تُعذِّبُ الرسولَ المصْطَفى إلا وقفَ دونَها وعرَّضَ نفسه للموتِ دِفاعاً عنهُ.

ففي أحدِ الأيام اجْتمعَتْ قريش في الحجر. وشاهَدَتِ النبيَّ عليه الصلاةُ والسلامُ يُصلّي عندَ الكعبة. فساءَها ذلكَ

(١) أسد الغابة: ابن الأثير ج٣ ص٣١٨

الأمر، وقامَ عقبةُ بنُ أبي مُعَيْط وأتى النبيَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ من خلْفِهِ ولَوى ثَوْبَهُ في عُنقِهِ محاولاً خَنْقَهُ.

ودخلَ أبو بكرٍ رضِيَ الله عنهُ وشاهدَ ما يَفْعَلُهُ عقبةُ، فانْدَفَعَ إليه وأمسكَهُ بخصْرِهِ[1] ثم دفعَهُ عن رسول الله ﷺ دفعةً شديدةً رَمت بهِ جانباً. ولم يَسْلَم يومها من أذيَّة قريش حيثُ انْهالَتْ عليهِ الضَّرباتُ والركلاتُ وهو يقولُ لهُمْ:

ـ «أتقتلونَ رجلاً أن يقول ربِّيَ الله وقد جاءكُمْ بالبَيِّنات؟»

ولأبي بكرٍ رضي الله عنهُ مواقِفُ عظيمةٌ ساعدَتْ في توطيد الإسْلام. ومن أَهَمِّ تلكَ المواقف ما حدَثَ بعدَ الإسْراءِ والمِعْراج.

فقد تحدَّثَ رسولُ الله ﷺ إلى أهل مكةَ المكرَّمةِ بأنَّ الله سبحانَهُ وتعَالَى أَسْرى بهِ ليلاً من المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقْصى. وأنَّه صَلى هناكَ ثم عرج بعدَ ذلك إلى السَّماء.

وسَخرَ المشركونَ من هذا الحديث. وساورَ الريبُ فيه بعضَ المسلمين. وتساءلوا في شكٍّ:

ـ هذا والله أَمْرٌ غريب. والله إنَّ العير ليلزَمُها شَهْـر من مكةَ إلى الشام مُدْبرة. وشهـر مُقْبلة. أَيَذْهَبُ محمدٌ ذلكَ في ليلةٍ واحدةٍ ويرجع إلى مكَّة؟

---

(١) خصره: محيط بطنه.

وارتدَّ كثيرٌ ممَّنْ أَسْلَموا. وتردَّدَ كثيرونَ وذَهبوا إلى أبي بكر رَضِيَ الله عنهُ لما يعلمونَهُ من إيمانِهِ وصُحْبَتِهِ محمداً عليه الصلاة والسلام. فذَكَروا له ما يقولُهُ عن الإسراء. فقالَ أبو بكرٍ وقد تولّاه الدَّهَشُ لما سَمِعَ:

ـ إنَّكُمْ تَكْذِبونَ عليهِ.

قالوا:

ـ بلى. ها هُوَ ذاك في المسجدِ يحدِّثُ الناسَ.

قال أبو بكر:

ـ والله لئِنْ كانَ قد قالَهُ لقد صَدَقَ. إنَّه ليُخْبِرُني أنَّ الخَبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرضِ في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ فأُصَدِّقُهُ. فهذا أبعد مِمّا تَعجبونَ مِنْهُ.

وأتى أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه إلى المسجدِ واستمَعَ إلى رسول الله ﷺ يَصِف بيتَ المقدسِ. وكانَ أبو بكرٍ قد زارَهُ قَبْلاً، فلما أتَمَّ النبيُّ المصْطَفى صِفةَ المَسْجِدِ الأقصى قال أبو بكرٍ رضيَ الله عنهُ:

ـ «صَدَقْتَ يا رسولَ الله.»

ومن ذلِكَ اليوم دَعا رسولُ الله ﷺ أبا بكرٍ بالصِّدّيق.

وازدادَت الصِّلَةُ بينَ رسولِ الله ﷺ وأبي بكرٍ التصاقاً وقُرْباً حتى قال الرسولُ الكريمُ فيه:

ـ «لو كنتُ مُتّخِذاً من العباد خليلاً لاتَّخَذْتُ أَبا بكـرٍ خليـلاً. ولكن صحبةٌ وإخـاءٌ وإيمانٌ حتى يـجْمَـعَ الله بينَنـا عِنْدَه.[1]»

بعد بيعةِ العَقبة الثانيـة أَمرَ رسـولُ الله ﷺ المسلمينَ بالهجرة إلى المدينة المنورة على أَنْ يلحَقَ بهِمْ عِنْدَما يأمرُهُ الله سبحـانَهُ وتعَـالى بذلـك. ولـم يبـق من المسلمينَ في مكَّةَ المكرمةَ إلّا الذين حُبِسوا عن الهجرة أو الذينَ فتنوا في دينـهـم وهم ضِعافُ الرأي.

وبَقِيَ أبو بكرٍ والإمـامُ علي بنُ أبي طالب رضي الله عَنْهُما.

وكان أبو بكرٍ يستَأْذِن الرسولَ الكريمَ في الهجرةِ فيقولُ لهُ:

ـ لا تَعْجَلْ. لعلَّ الله يَجْعَلُ لَكَ صاحباً.

فطمِعَ أَبو بكرٍ رضِيَ الله عنهُ بأَنْ يكونَ النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ هُوَ صاحبه، وأَنَّه عندَما قالَ لهُ ذلكَ كان يَعْني نَفْسَهُ. فابْتاعَ راحلتَيْن وأَخْفاهُما في دارِهِ وبدأَ يَعْلِفُهما وهو يُمَنِّي النَّفْسَ بمصاحبَةِ رسولِ الله ﷺ في هجْرَتِهِ.

وكان من عادةِ رسولِ الله ﷺ أن يأْتِيَ إلى دارِ أَبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ مرةً في اليوم. إما في الصباح أو في المساء.

---

(١) آسد الغابة: ج٣ ص٣١٤

وفي أحدِ الأيَامِ أَتى النبيُّ المُصْطَفى منزلَ أَبي بكر وقْتَ الظهيرةِ وهو وقتٌ لا يأتيه فيه أَبداً، فلما رآه قال:

ـ ما جاء رسولُ إليه ﷺ في هذه الساعة إلا لأمرٍ حَدَث.

فقال لهُ رسولُ الله ﷺ:

ـ إنَّ الله قد أَذِنَ لي في الخروج والهجرةِ.

فقال أبو بكر:

ـ الصحبة يا رسولَ الله؟

أجابَهُ:

الصُّحبة.

ولم يكن أَحدٌ على علم بخروج الرسول الكريم إلّا أبو بكر وابنتاه أسماء وعائشة وابنُه عبد الله والإمامُ عليٌّ الذي أَمَرَهُ رسول الله ﷺ أَن يتخلَّفَ بعدَهُ في مكةَ المكرَّمةِ حتى يؤدِّيَ عنهُ الودائع التي كانَتْ عِنْدَهُ للنّاس.

وخرج الرسول الكريم ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه من باب خلفِيٍّ للدّارِ واتَّجها إلى غارِ ثوْرٍ وهو خارج مكَّةَ المكرمة بعد أَنْ اسْتأجرا عبد الله بنَ أُرقط ـ وهو مشركٌ ـ ليكونَ دليلَهُما إلى المدينة المنوَّرَة. وليُحْضِر لَهما راحلَتَيْهِما عِنْدَما يُبْلِغُهُ عبدُ الله بنُ أَبي بكر بِذلكَ ويحَدِّدُ لهُ المكان.

وعندما وصلا إلى مدخل غار ثور، دخل أبو بكر الصديق

رضِيَ الله عنهُ قبلَ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ ليتأكَّدَ من خُلُوِّ الغار من الأفاعي أو الوحوش. حتى إذا كانَتْ فيهِ افتداهُ بنَفْسِهِ. ولما تأكَّد من سلامَتِهِ دخلَ النبي عليه الصلاةُ والسلام في أثرِهِ ومكثا[1] في الغارِ ثلاثَةَ أيام كان عبدُ الله بنُ أبي بكر ينقلُ إليهما خلالَها أخبارَ قريشٍ مساءً. ويأتي بعدَ ذهابِهِ عامرُ بنُ فهيرة بقطيعِهِ فيريحُ الأغنام على باب الغار ويحلبُ لهُما ثم يزيلُ الآثارَ التي يكونُ تركَها عبدُ الله.

وكانَتْ اسماءُ بنتُ أبي بكر تُحْضر لهُما الطَّعامَ بعدَ أن تضعَهُ في نطاقِها[2] تحتَ ثديها ثم تضَعُ نِطاقاً فوقَهُ ولذا سُمِّيَتْ «أسماء ذات النطاقين».

ثم هيَّأَ الله لَهُما بعدَ ذلكَ الوصول إلى المدينة المنوَّرة.

وبعدَ استقرار رسولِ الله ﷺ في المدينة المنوَّرة خاضَ حروبَهُ ضدَّ قريشٍ والمشركين واليهودِ. وكانَ أبو بكرٍ في طليعةِ المجاهِدينَ، في بدرٍ . . . في أحدٍ . . . في الخندقِ . . في خيبر . . في الحديبيةِ . . في فتحِ مكَّةَ المكرَّمة . . في حُنين . . في كلِّ المواقِع.

وفي المدينة المنوَّرة تزوَّج رسولُ الله ﷺ منَ السيِّدة

(١) مكث: بقي.

(٢) نطاق: قطعة قماش تلف حول البطن.

عائشة أُمِّ المؤمنينَ ابنةِ أبي بكر رَضِيَ الله عنهما، وبذلكَ أصْبَح عمّ الرسول الكريم.

واخلاصُ أبي بكرٍ لرسولِ الله ﷺ ولرسالتِهِ لا حدودَ لهُ. فهو في المدينة المنورةِ كما كانَ في مكةَ المكرَّمة، استَمرَّ ذلكَ الداعيةَ إلى الإسْلام.

وفي قصةِ أَبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ معَ «فنحاص» اليهودِيّ ما يُغنينا عن سَرْد قِصصٍ كثيرةٍ تُظْهِرُ مدى الإيمانِ الذي ملأ نَفْسَه. ولعلَّنا نستغربُ كيفَ أنَّ رجُلاً مثلَ أَبي بكرٍ المعروف بهدوئِهِ ووداعتِه ولين أَخْلاقِه يتحوَّلُ إلى ثائر يضربُ اعداء الله الذين يحاولونَ النَّيْلَ من الدين الحنيف... إنَّه الإيمان.

كانت اليهودُ قد حسبتْ أَوَّلَ الأمرِ أَنّها قادرةٌ على أَنْ تَكسبَ المسلمينَ من أهْلِ مكَّةَ المكرمةِ ليكونوا عَوْناً لهُمْ على الأوْسِ والخَزْرَج. فلما أُسْقطَ في أَيديهم وعجزوا عن التَّفْرقَةِ بينَ المهاجرينَ والأنصار، بدأوا يَكيدونَ للمسلمينَ ويسْخَرون من دينهِمْ.

وكانَ لدى اليهود حبرٌ عالم هو «فنحاص» ـ يَجْتمعونَ إليهِ ويُفَكِّرون في كيفيةِ مضايقَةِ المسلمينَ والسخرية منْهُم.

ودخل أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه يوماً على فنحاص

لدَعْوتِهِ إلى الإسلام، واليهودُ مجتمعون عنده. فَقالَ لَـهُ أبو بكر:

ـ «وَيْحَكَ يا فنحاص . . اتَّقِ الله وأسـلم، فوالله إنَّكَ لتَعْلَم إنَّ محمداً لرسولُ الله، قد جاءَكُمْ بالحقِّ من عندِه. تَجِدونَهُ مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل».

فقالَ فنحاص وعلى شَفَتَيْهِ ابتسامةٌ ساخرةٌ متهكِّمَة:

ـ «والله يا أَبا بكر. ما بنا إلى الله من فقر. وإنَّه إلَيْنا لفقير. وما نَتَضَرَّعُ[1] إليه كما يتضرَّعُ إلَيْنا. وإنَّا عنه لأغنياء وما هُوَ عنّا بغنيّ. ولو كانَ عنّا غنيّاً ما استقرضنا أموالنا كما يزعمُ صاحِبكُمْ. ينهاكُم عن الرِّبا ويُعطيناهُ. ولو كانَ عنا غنِيّاً مـا أَعطانا.»

فلما رأى أبو بكر رَضِيَ الله عنهُ أنَّ فنحاص يستهزئُ برسولِ الله ﷺ وبقولِ الله عزَّ وجلَّ لم يتمالَكْ نَفْسَهُ من توجيهِ ضرباتٍ شديدة إلى وَجْهِهِ وهوَ يقولُ:

ـ «والذي نَفْسي بيَدِهِ لـوْلا العهدُ الـذي بَيْنَنا وبينكُمْ لَضَرَبْتُ رأسَكَ أيْ عدو الله.»

---

(١) تضرع: دعا ربه بخوف وخشية.

٥ ـ الخليفةُ الأوَّل

في أوائل شَهْرِ ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة، مَرضَ رسولُ الله ﷺ. وصباحَ يوم الاثنَين في الثاني عشَر من ربيع الأول شَعَرَ الرَّسولُ الكريمُ بتحسُّنٍ في صِحَّتِهِ. فخرجَ من غرفة السيّدةِ عائشة أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها الملاصقةِ للمسجد وتحدَّثَ إلى المسلمينَ ودَعا لأسامَة بن زيدٍ بالخَيْرِ وأَمَرَهُ أَنْ يسيرَ لغزوِ الرّومِ، ثم طَلب من أَبي بكرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بالناس.

وبعد أَنْ دخَل غرفةَ السيّدة عائشة رَضِيَ الله عنها عادَهُ أبو بكرٍ واطْمأَنَّ عليهِ ثم ذهبَ إلى بَيْتِه في «السَّـنْحِ» وهوَ خارِج المدينة المنوَّرة.

وتوفّيَ رسولُ الله ﷺ، وأَبو بكرٍ في بيتهِ بعِيداً عنهُ. فأَتى من يُبْلِغُهُ بنبأ الوفاة.

قَدِمَ أبو بكرٍ رضي الله عنه فوجَدَ النّاسَ في المسجدِ ذاهلينَ ضائعينَ، وعمر بن الخطاب رَضِيَ الله عنه يخطُبُ فيهم ويهاجِمُ كلَّ من يَعتقِدُ أَنَّ النبيَّ عليه الصلاةُ والسلامُ قد مات.

ودخل أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ إلى غرفةِ ابْنَتِه السيدة عائشة رَضِيَ الله عَنْها حيثُ الرسولُ الكريمُ مسجًّى فيها. فكشفَ عن وَجْهِهِ الكريم، وجَعَلَ يُقَبِّلُهُ وهو يبكي ويقول:

ـ «ما أَطْيَبَكَ حيّاً . . . وما أَطْيَبَكَ ميْتاً.»

ثم خرَج إلى الناسِ وهُمْ في موقِفِهِمْ ذلكَ. فتماسكَ أمامَهُمْ وقد بدا في قِمَّةِ قوَّتِهِ وَسَيْطَرَتِهِ على نفْسِه وقالَ:

ـ «أَيُّها الناس . . .

من كانَ يعبُد محمداً فإنَّ محمداً قد مات. ومن كانَ يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت.»

ثم تلا عليهِمُ الآية الكريمة:

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم. ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين[1]﴾.

بذلكَ القولِ الحازمِ الحكيم اسْتطاعَ أبو بكرٍ رضِيَ الله عنه أنْ يسيطِرَ على الناسِ ويردَّهُم من ذهولِهِمْ إلى الواقعِ. ثم دخَل غرفةَ السيِّدة عائشة رضِيَ الله عنْها ومَعَهُ الإمامُ علِيٌّ كرَّم الله وجهَهُ ليُجَهِّزوا النبيَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ تمهيداً لدَفْنِهِ.

وجلَسَ عمرُ بنُ الخطاب وأبو عبيدَة بنُ الجراح رَضِيَ الله عنهما وحولَهُما المسلمونَ يتحدَّثونَ بأَمْرِ الوفاة. وعمرُ بعيدٌ عنهُمْ بأفْكارِهِ: «لِمَنْ سيكونُ الأمْرُ بعد وفاة النبيِّ؟»

في تلكَ الأثناء تداعى الأنصارُ إلى اجتماعٍ عَقَدوه في «سقيفة بني ساعدة» ومعهُمْ سعدُ بنُ عبادة سيِّدُ الخزرجِ

(١) آل عمران الآية: ١٤٤.

يحضِّرُ نَفْسَهُ للحصولِ على مبايعة القَوْمِ لَهُ خليفةً لرسولِ الله ﷺ. وقالَ يخاطِبُ الأنصار:

ـ «يا معشر الأنصار . .

إنَّ لكُم لسابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليسَتْ لقبيلةٍ من العرب. إنَّ محمّداً عليهِ السلامُ لَبِثَ بِضْعَ عَشْرَةَ سنة في قومِهِ يَدْعوهُمْ إلى عبادةِ الرحمن، وخَلْعِ الأنداد والأوثان. فما آمَنَ به من قَوْمِهِ إلا رجالٌ قليل. وما كانوا يَقْدِرونَ على أَنْ يمنعوا[١] رسولَ الله ولا أن يعزُّوا[٢] دينَهُ ولا أَنْ يَدْفَعوا عن أَنْفُسِهِم ضَيْماً عُمُّوا[٣] به.

فلما أَرادَ لكُمْ ربُّكُم الفضيلةَ ساقَ إليكمُ الكَرامَة وخصَّكُمْ بالنعمةِ فرزقكُمُ الله الإيمانَ بهِ وبرسولِهِ والمَنْعَ لهُ ولأصْحابِهِ والإعْزازَ لَهُ ولدينه والجهادَ لأعدائه. فكُنْتُمْ أَشَدَّ الناسِ على عدوِّهِ منكُمْ وأَثْقَلَهُ على عدوِّهِ من غيرِكُمْ. حتى إذا استقامت العربُ لأمْرِ الله طَوْعاً وكُرْهاً وأَعطى البعيدُ المقادةَ[٤] صاغراً داخراً[٥] وحتى أَثْخَنَ الله عزَّ وجلَّ لرسولِهِ بكُمُ الأرضَ ودانَتْ بأَسْيافِكُم العربَ وَتَوفّاهُ الله وهو عنكم راضٍ وبِكُمْ قريرُ

---

(١) يمنعوا: يحموا.

(٢) يعزوا: ينصروا.

(٣) ضيماً عموا به: ظلماً كبيراً أصابهم جميعاً.

(٤) أعطى المقادة: انقاد.

(٥) صاغراً داخراً: ذليلاً مقهوراً.

العين. فاسْتبدوا بهذا الأمرِ دونَ النّاسِ. فإنَّه لكُمْ دونَ النّاسِ.

وأَتى من يُبْلِغُ عمَر بنَ الخطاب رضِيَ الله عنـهُ بأَمْـرِ السقيفة، فأَرْسَلَ إلى غرفة السّيدة عـائشة رَضِيَ الله عنْهـا وطلبَ من أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنْهُ أَنْ يَخْرُجَ لأمْرٍ هام.

ولما خَرَجَ أبو بكرٍ أَبْلَغَهُ بما يحصُلُ في سقيفةِ بني ساعِدَة وقالَ لَهُ:

- «أَما علِمْتَ؟.. إنَّ الأنصارَ قد اجْتَمَعَتْ في سقيفةِ بني ساعِدة يُريدونَ أَنْ يُوَلّوا هذا الأمر سعدَ بنَ عبادة، وأَحْسنُهم مقالةً من يقولُ: «مِنّا أَميرٌ ومنكم أَمير.»

عندَ ذلكَ اتّجـه الصحابَـةُ الثلاثَـةُ الأجِلّاء: أَبـو بكر وعمرُ بنُ الخطاب وأَبو عبيدَة بنُ الجراح رضي الله عنهُمْ إلى السقيفة حيثُ أَلْفوا المجتمعينَ يَتَداولونَ في كـلام سعدِ بنِ عبادة دونَ أَنْ يُبايعوهُ، وإنْ كانوا قد صمَّموا على أَنْ يَجْعلوا الخلافةَ لَهُمْ ويكونَ لهُمُ السلطانُ على كلِّ العَرب.

وبعد أنْ استَقرَّ مجلس الثلاثةِ في السقيفة بَيْنَ الأنصار، أَرادَ أبو بكر رضِيَ الله عنهُ أَنْ يخاطِبَ الأنصـارَ بلغَةٍ فيهـا المضمـون العاطِفِيُّ والجَوْهَرُ الدينيُّ والتنبيهُ لخطورةِ الموقف وقال:

- «... [illegible] على العربِ أَنْ يَتْركوا دينَ آبـائِهم. فخصّ الله المهـ[illegible] الأوَّلين من قَوْمِهِ بتصديقِهِ والايمان بهِ

والمؤاساة لهُ والصَّبْر معَهُ على شدَّةِ أذى قومِهِم لهُمْ. وتكذيبهِمْ إيّاهُمْ. وكلُّ الناسِ مُخالِفٌ لهم زَار[1] عليهم. فلم يَسْتَوْحشوا لقلَّة عددِهِمْ وشنَف[2] الناس لهُمْ وإجْماعِ قومِهِمْ عليهِم. فهمْ أوَّلُ من عَبَدَ الله في الأرض وآمَنَ باللهِ وبالرسولِ وهُمْ أولياؤه وعشيرتُه وأحَقُّ الناسِ بهذا الأمرِ من بَعْدِه ولا يُنازِعُهُم في ذلك إلّا ظالِم.

وأنْتُم يا معشرَ الأنصارِ من لا ينكرُ فضلهم في الدين ولا سابقتُهم العظيمةُ في الإسلام. رضيكمُ الله انصاراً لدينه ورسولِهِ. وجعلَ إليْكُمْ هِجْرَتَهُ وفيكُم جلَّةُ أزواجِهِ وأَصْحابِهِ. فليسَ بعدَ المهاجرينَ الأوَّلين عنْدنا بمنزلَتِكُمْ. فنحنُ الأمراءُ وأنْتُم الوزراء. لا تَفْتاتونَ[3] بمشورة. ولا تُقْضَى دونَكُمُ الأمور.»

وتركَ كلامُ أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ حالةً من الحيرة والقَلقِ وإعادَةِ النَّظرِ في صفوفِ الأنصار. إلّا أنَّ المُتَحَمِّسينَ من الأنصارِ تَشاوَروا فيما بَيْنَهُم وكلَّفوا أحَدَهُمْ بالرَّدِّ على أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ فوقَفَ وقالَ:

ـ «أمّا بَعْد. فنحنُ أنصارُ الله وكتيبةُ الإسْلام. وأنْتُمْ

(١) زار عليهم: محتقر لهم ومستخف بهم.
(٢) شنف: بغض.
(٣) لا تفتاتون: لا يقضى أمر بدونكم.

يامعشرَ المهاجرينَ رهطٌ[1] منّا وقد دفَّت[2] دافَّةٌ من قومِكم وإذا هُمْ يريدونَ أَنْ يَخْتَزلونا[3] من أَصْلِنا ويَغصبونا الأمْرَ. »

ولم يشأْ أبو بكرٍ رضِيَ الله عنهُ أَنْ يَتْرُكَهُ دونَ أَنْ يردَّ عليهِ فقالَ يخاطِبُ الأنصارَ مجدِّداً:

ـ «أيّها الناس..

نحنُ المهاجرون أَوَّلُ الناسِ إسْلاماً وأَكْرَمُهُم أَحساباً وأَوْسَطُهُمْ داراً وأَحْسَنُهُم وُجوهاً وأَكْثَرُهُمْ ولادةً في العرب. وأَمَسُّهُم رحماً برسولِ الله. أَسْلَمْنا قبلَكُمْ. وقدِّمْنا في القرآنِ الكريم عليكُم فقالَ تباركَ وتعالى:

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان﴾

فنحنُ المهاجرونَ وأَنْتُمْ الأنصارُ إخْوانُنا في الدين وشركاؤنا في الفيء[4] وانصارُنا على العَدُو. أَمّا ما ذَكَرْتُم فيكُمْ من خير فأَنْتُم أهلٌ لَهُ. وأَنْتُمْ أَجْدَرُ بالثناء من أَهْلِ الأرضِ جميعاً. فأَمّا العربُ فلَنْ تَعْرِفَ هذا الأمر إلّا لهذا الحيِّ من قريش. فمنّا الأمَراءُ ومِنْكُمُ الوُزَراء.»

---

(١) رهط: جماعة.

(٢) دفت: انتقلت من بلد إلى آخر.

(٣) يختزلونا: يقتطعونا ويذهبوا بنا منفردين.

(٤) الفيء: الغنائم والمكاسب والريع.

وتحمَّسَ الحبَّابُ بنُ منذر بن الجموحِ الأنصاريّ فردَّ على أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ ردّاً غليظاً دفَع بعمر بنِ الخطّاب رضِيَ الله عنهُ إلى مهاجَمَتِه وتوعُّدِهِ حتى كادا أنْ يتماسَك بالأيْدي لولا تدخُّل أبي عبيدةَبنِ الجراح فقالَ يخاطِبُ الأنصار:

- «يا مَعْشَرَ الأنصار. . .

كُنْتُمْ أَوَّلَ من نَفَر وآزَرَ[1]. فلا تكونوا أوَّلَ من بدَّلَ وغيَّر».

وكانَ لكلام أبي عبيدة وقْعٌ حسنٌ في نفوسِ بعض الأنصارِ فَقامَ بشيرُ بنُ سعد يخاطِبُ قَوْمَهُ الأنصار قائلاً:

- «إنا والله وإنْ كنّا أُولي فضيلةٍ في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين. ما أَرَدْنا بِهِ إلا رضى ربنا وطاعَةَ نبيِّنا والكدْحَ[2] لأنفُسِنا. فما يَنْبغي لنا أنْ نستطيلَ على النّاسِ بذلكَ ولا نبتغي من الدُّنْيا عرضاً. فإنَّ الله وليُّ النعمةِ عَلَيْنا بذلك. ألا إنَّ محمداً ﷺ من قريشٍ وقومُه أَحَقُّ بِهِ وأَوْلى. وايم الله لا يَراني الله أُنازِعُهُم في هذا الأمرِ أبداً. فاتقوا الله ولا تُخالِفوهُمْ ولا تُنَازِعوهُمْ.»

وانْتَهَز أبو بكر رضِيَ الله عنهُ فرصَة انتهاءِ بشيرِ بن سعد

(١) آزر: أعان.

(٢) الكدح: السعي.

من كَلِمَتِهِ وأَرادَ أَنْ يَحْسمَ الأمْرَ، فوقَفَ وقد رَفَعَ يَدَ عمر بنِ الخطَّاب بيَده ثم رَفَع يَد أبي عبيدَة بيدِه الأخرى وطلب من النّاس البَيْعَة لأحدِ الرَّجُلَيْن.

إلاّ أن عمرَ بنَ الخطاب وَضَعَ يَد أَبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهُما وبايَعَهُ أمامَ الحاضرينَ وطلَبَ مِنْهُم البيعة.

فكانَ أَوَّلَ المبايعينَ من الأنصار بشيرُ بنُ سعد فضربَ على يد أَبي بكرٍ مبايعاً وتبعهُ أَسَيْدُ بن حضير زعيمُ الأوسِ فبايَعَ بدوْره. وبايَعَ جميعُ الحاضرينَ أَبا بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ خليفةً لرسولِ الله ﷺ باسْتثْناءِ سعدِ بن عبادة.

بعدَ بيعة السقيفة كانَ لا بدَّ منَ الحصول على بيعةِ جميع المسلمين. فانْطَلَقَ أبو بكر وصَحْبُه إلى المسجدِ حيثُ كانَ المسلمونَ ما زالوا مجتمعين. فبايَعوهُ جميعاً. ثم وَقَفَ فيهِمْ خطيباً يُلْقي خطبتَهُ الأولى التي كانَتْ قمةً في الحكمة وبرنامَجَ عملٍ رسمَهُ لنَفْسِهِ وللمسلمين.

قالَ أَبو بكر رَضِيَ الله عنه:

ـ «أما بعْد أَيّها الناس. . .

فإنّي قد وُلِيتُ عليكُمْ ولسْتُ بخَيْرِكُمْ. فإنْ أَحْسَنْتُ فأَعينوني وإنْ أَسَأْتُ فقوِّموني[1]. الصِّدْقُ أمانةٌ. والكَذِبُ

(١) قوموني: أزيلوا اعوجاجي.

خيانة. والضعيفُ فيكُمْ قويٌّ عندي حتى أريح عليهِ حقَّهُ إنْ شاء الله، والقويُّ فيكمُ ضعيفٌ عِنْدي حتى آخُذَ الحقَّ منهُ إنْ شاء الله. لا يدَع قومٌ الجهادَ في سبيل الله إلاّ ضربهم بالذُّل. ولا تشيعُ الفاحشةُ في قومٍ إلاّ عَمَّهُمُ الله بالبلاءِ. أَطيعوني ما أَطَعْتُ الله ورسولَهُ. وإنْ عصَيْتُ الله ورسولَهُ فلا طاعة لي عليكُمْ. قوموا إلى صلاتِكُمْ يَرْحمكُمُ الله.»

٦ - حرْبُ الرِّدَّة

بعد وفاة رسول الله ﷺ، ارْتَدَّتِ القبائلُ العربيةُ عن الإسلام. ووجَد الخليفةُ نفْسَهُ في مواجهةِ حركةٍ فيها الكُفر والضلالُ والتمرُّدُ مِمّا يُهدِّدُ بتفتيتِ وحدةِ الجزيرة العربية التي انضوت تحت لواء الإسْلام.

وللرِّدةِ أسبابٌ متعدِّدة.

فبعضُ القبائل منعَتِ الزَّكاة وأَرادَتِ التّحرُّرَ من قيودِ الدين والعَوْدَةَ إلى الجاهلية.

وبعضُ القبائِلِ طمعَتْ بالسَّيْطَرَة على الجزيرةِ العربيَّةِ وتزعُّم العرب. وقد برزَ أنبياءٌ كذبةٌ خدعوا النّاسَ واحْتالوا عليْهِمْ.

وطمعت بعض القبائل العربية ومنها عبس وذبيان بمهاجمة المدينة المنورة والسيطرة عليها تمهيداً للسيطرة على كل الجزيرة العربية.

وتنبه أبو بكرٍ لما تُعِدُّهُ عبسٌ وذبيان، فوزَّع الحَرَسَ ليلاً ونهاراً وأَهابَ[1] بالمسلمينَ أن يكونوا مستعدين دائماً لكل طارىء.

وفي إحدى اللّيالي قامَ المُرْتَدّونَ بمهاجمةِ المدينةِ المنوَّرَة، فتصدّى لهُم المسلمون بفَضْلِ وَعْيِهِم وطَرَدوهُمْ عنها. فتراجعوا إلى مكانٍ يُقالُ لَهُ «ذو القصة» وهم يَعْتَقِدونَ أنهم بمجردِ هُجومِهِمْ على المدينةِ المنورةِ، قد حقّقوا نصراً يريدونَ إكْمالَهُ في اليوم التالي.

وأَدْرَكَ أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ ببصيرَتِهِ النّافذة ما يُهَيِّئُ لَهُ المُرْتَدّونَ. فجهَّزَ جيشَهُ وخرجَ من المدينة المنوَّرة خلفهم حتى أَظْلَم الليل. عِنْدَ ذلكَ طلبَ من المسلمينَ أَنْ يتسلَّلوا بدونِ حسٍّ ولا همس ويَبْطشوا بالكفار.

وبسرعة لا مثيلَ لَهَا، ووسطَ الظَّلامِ الحالِك، كانَتْ سيوفُ المسلمينَ تَحْصُدُ رؤوسَ المُرْتَدّينَ وهم يَفِرونَ أَمامَهُمْ في كلِّ اتّجاهٍ حتّى أَصْبَحَ الصَّباح، وتحقَّقَ النصْرُ الأوَّلُ للمسلمينَ في عهدِ الخليفة الأوَّل.

وأخذتِ التقاريرُ والمعلوماتُ ترِدُ إلى أَبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ تبين مَسارَ حَرَكةِ الارْتِداد في أطراف الجزيرة العربية.

ففي الجنوب، في بلاد اليمَن، اسْتَطاعَ الأسودُ العنسيُّ أن يطرُدَ ولاةَ رسـول الله ﷺ عنها، ويُسَيْطِر على كلِّ البلاد.

---

(١) أهاب: دعا.

وفي الشِّمالِ الشَّرقِي ادّعى مسيلمةُ به حبيبٍ الكذّاب النبوَّةَ والْتَفَّ حولَهُ قومُهُ بَنو حنيفة وحَشَدوا مايقـاربُ الأربعينَ أَلْفَ مقاتِلٍ.

وفي قبيلةِ بَني أسد دَعا طليحةُ بنُ خويلد الأسدي إلى التمنُّعِ عن دفْعِ الـزكـاة. كما جمع مالِكُ بنُ نويرة اليربوعي أبناء قبيلتِه وسارَ في ركـاب سجاح التغلبيـة التي ادَّعَتِ النبوَّةَ وتزوَّجَتْ من مسليمَة بنِ حبيب الكذّاب.

وأَرادَ أبـو بكرٍ رَضِيَ الله عنـهُ الخروجَ بنفسـهِ لقتالِ المُرْتَدّين إلاّ أَنَّ فضلاءَالصَّحابة وأَجِلاّءَهم وفي مقدّمِهم الإمامُ عليٌّ كرَّم الله وجهَهُ منَعوهُ مِنَ السَّيْر بِنَفْسِهِ على رأس المسلمينَ، وطلبَ منهُ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ تسيير جيوشٍ إلى أمكنة الارْتِداد. فاقْتَنَعَ الخليفةُ برَأْيِهِمْ.

وجهزَ أحدَ عشرَ جيشاً عيَّن على كلِّ جيش أَميراً وبعثَهُ إلى مكـان لَهُ وهُمْ:

١ ـ خالدُ بنُ الوليد إلى طليحَة بنِ خويلد في بني أسد ومن انْضَمَّ إليهِمْ من مُرْتَدّي طَيِّئٍ وعبسٍ وذبيان. فإذا فَرغَ منهُ فـإلى مالكِ بهِ نـويـرة زعيم ردَّةِ بني تميم بالبطاح.

٢ ـ عكرمةُ بنُ أَبي جهل إلى مسيلَمَة بنِ حبيبٍ الكذّاب في اليمامة.

٣ ـ شرحبيلُ بنُ حسنَة في اثرِ عكرمة ولنفسِ الهَدف.

٤ ـ طريفةُ بنُ حاجز إلى بني سليمٍ ومن معهم من هوازن.

٥ ـ عمرو بن العاص إلى قضاعةَ ووديعة والحارث.

٦ ـ خالدُ بنُ سعيد إلى مشارِفِ الشام.

٧ ـ العلاءُ بنُ الحضرمي إلى البحريْن.

٨ ـ حذيفةُ بنَ محصن الغلفاني إلى دبا بعُمان.

٩ ـ عرفجةُ بنُ هرثمة إلى أَهْل مهرة.

١٠ ـ المهاجرُ بنُ أَبي أمية إلى الأسْوَدِ العنسي بصنعاء ثم إلى حضرموت.

١١ ـ سويدُ بنُ مقرن المزني إلى تهامَة باليمن.

ثم وزَّع أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ منشوراً على جميع قبائلِ العرب من صيغةٍ واحدةٍ جاءَ فيه:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم.

من أَبي بكرٍ خليفةِ رسولِ الله ﷺ إلى من بلَغُه كتابي هذا من عامَّةٍ وخاصَّةٍ أَقام على إسْلامِهِ أو رَجعَ عنْهُ.

سلامٌ على من اتَّبعَ الهدى ولم يرجِعْ بعد الهُدى إلى الضَّلالةِ والعمى.

فإنّي أَحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلاّ هوَ. وأَشْهَدُ أَنْ لا

إله إلّا الله وحْدَهُ لا شريكَ لَهُ وأَنَّ محمداً عبدُه ورسولُه. نُقِرُّ بما جاء به ونُكَفِّرَ من أَبى ونجاهدُهُ.

أمّا بعد. فإنَّ الله تعَالى أَرْسَلَ محمداً بالحقِّ من عِنْدِهِ إلى خَلْقِهِ بشيراً ونذيراً وداعِياً إلى الله بإذْنِهِ وسراجاً منيراً لينـذرَ من كانَ حَيّاً ويَحِقّ القولُ على الكافرين. فهدى الله بالحقِّ من أجابَ إليهِ. وضرَب رسولُ الله ﷺ بـأذنِ من أَدْبَرَ عنهُ حتى صارَ إلى الاسلامِ طَوْعاً وكرهاً.»

وجاءَ بالمنشورِ أيضاً:

«وقد بَلَغَنِي رجوعُ من رَجعَ منكُمْ عن دينِهِ بَعْدَ أن أقرَّ بالإسلام وعمِـلَ به اغْتـراراً[1] بالله وجَهـالةً بـأَمْرِهِ وإجـابَةً للشيطان.

وإنّي بعثْتُ إليكم فـلاناً في جيشٍ من المهـاجـرين والأنصار والتابعينَ بإحسانٍ، وأَمَرْتُه أَنْ لا يُقَاتِل أحداً ولا يقتله حتى يَدْعوه إلى داعيةِ الله. فمن استجابَ لهُ وأقرَّ وكَفَّ وعَمِلَ صالحاً قَبِلَ منهُ وأعانَهُ عليه. ومـن أَبى أَمَرْتُ أن يقاتِلَهُ على ذلك ثم لن يبقي على أحدٍ منهم قدرَ عليه.

وقد أَمرْتُ رسولي أن يقرأ كتابي هذا في كلِّ مجمع لكم والدّاعية الأذان. فإنْ أَذَّنَ المسلمون فأَذَّنوا، كفوا عَنْهُمْ. وإن

---

(١) اغترارا: خداعاً.

لم يؤذّنوا عاجلوهم. وإن أَذَّنوا سألوهُـم ما عليهم فـإن أَبَوْا عاجلوهُمْ. وإنْ أَقرّوا قَبِلَ منهم وحَمَلَهُمْ على ما ينبغي لهُمْ.»

واستطاعَتِ الجيوشُ الإسـلاميةُ أن تسحقَ المـرتدّينَ وتَقْضِيَ على زُعمائِهِمْ. وتعيدَ إلى حظيرة الدين كلَّ المرتدّين. وكان لبعضِهِمْ شأنٌ كبيرٌ في مسيرة الإسْلام ِ المباركةِ فيما بَعْدُ بَعْدَ أَنْ حَسُنَ إسْلامُهُمْ.

٧ ـ فَتْحُ العراق

كانت أَهَمّ نتيجة حصلَتْ بعد انتهاءِ حروبِ الردَّة، عودة الوحدَةِ إلى شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ في ظلِّ الإسلام. ثم ما تركَتْهُ من أثرٍ فعّالٍ في نَشْرِ الدّين الإسلاميّ فيما بعد، في البلادِ التي فُتِحَتْ.

كانَتْ هناكَ قوّتانِ عُظْمَيَانِ تُحيطانِ بالجزيرةِ العربيّةِ من الشِّمالِ الشرقيّ والشِّمال هما: فارسُ والروم.

وكانَ يقطُنُ المنطقةَ الممتـدةَ بينَ الجزيـرةِ والعراقِ والبحريْن حتى شواطىءِ الخليجِ الفارسيّ، قبيلةُ شيبان وهي أَحَدُ فروع ِ بكرِ بنِ وائل من ربيعةَ من معـدِّ بن عدنـان.

وكان للفرس سلطانٌ في البحْرَيْنِ وعُمان وقد استوطَنَ بعضُهم تلكَ البلاد. وكثيراً ما وَقَعَ النِّزاعُ والصِّدامُ بينهُمْ وبينَ بني شيبان.

وبرز بطلٌ من بَني شيبان هو المُثنّى به حارثة أَخَذَ يُغيرُ على أَرْضِ السواد في العراق ويعودُ بالغنائِمِ والأسلاب.

وانتشَر صيتُهُ في كلِّ أرجاءِ الجزيرةِ العربيّة.

وكانَ الخليفةُ أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ يفكِّرُ في مباشرةِ الفتوحِ في البلادِ المجاوِرةِ لنشْر الدّينِ الإسلامي. وجاءَتْهُ أخبارُ المُثَنّى وغاراته على العراق فتساءَلَ:

ـ «من هذا الذي تَأْتينا وقائِعُه[1] قبلَ معرفةِ نَسَبِه؟»

فأجابَهُ قيسُ بنُ عاصم المنقري، حكيمُ بني تميم ومن خصومِ بَني شيبان وكانَ حاضِراً مجلسَ الخليفة:

هذا رجلٌ غيرُ خاملِ الذِّكْرِ. ولا مجهولِ النَّسَبِ ولا ذليلِ العِماد. هذا المُثَنّى بنُ حارثةَ الشَّيْباني.»

وأَرادَ المُثَنّى لغاراتِهِ أَنْ تتخّذَ طابعَ الحربِ النظاميَّةِ والتصريح بذلكَ من الخليفة. فأتى المدينةَ المنوَّرَةَ وقابل أبا بكرٍ رَضِيَ الله عنـــه وشَرح لَهُ الأمْرَ وطَلَبَ الإذْنَ بالحربِ قائِلاً.

ـ «أَمِّرْني على من قبلي من قَوْمي أُقاتِلْ من يليني من أهلِ فارِسَ وأَكْفِكَ ناحِيَتي.»

فقَبِلَ أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ بذلكَ وأجازَ لهُ القِيامَ بعمليّاتٍ حربية مع بني قومِهِ في أرضِ العراق.

---

(١) وقائعه: غزواته وحروبه.

وكان المثنى صاحِبَ نظَرٍ ثاقِبٍ في أمور الحرب. فرأى أَنْ يحْشُدَ المسلمونَ جيشاً كبيراً ويباشِر فتْحَ بلادِ العـراق، وإبقاء حامياتٍ منهُ في كلِّ بلدٍ يُفْتَح. فأَرْسَلَ أَخاهُ مسعودَ بنَ حارثة إلى أَبي بكرٍ في المدينة المنوَّرةِ وكتب إليهِ:

ـ «إنْ أَمْدَدْتَني وَسَمِعَتْ بذلكَ العربُ أَسْرَعوا إليَّ وأَذَلَّ الله المشركين. مع أَنّي أُخْبِرُكَ يا خَليفة رسولِ الله ﷺ أَنَّ الأعاجم تخافُنا وتَتّقينا.»

ورأى أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنـهُ أَنْ يمدَّ المُثَنّى بحشـودٍ كثيرة. وأَعْمَلَ فِكْرَهُ وأَخذَ ينظُر إلى العراقِ نظرةً جديدة. كانَ يريدُ أَن تتِمَّ الفتوحُ بسرعةٍ ـ بصورةٍ مضمونَة. فوضَع خـطةً تَقْضي باحتلالِ العراقِ من جهتَيْه. من الجنوبِ. ومن الشِّمالِ بحيثُ يَلْتَقي الجيشانِ في وَسَطِهِ. في الحيرةِ عاصمة ملوكِ المناذرةِ العرَبِ الموالين للفرسِ. واخْتارَ لتلكَ المهمة قائِدَيْن مشهورَيْنِ مُتَّصِفَيْن بالشَّجاعَةِ وحسْنِ الرَّأْي وبراعَةٍ في التخطيطِ العسكريِّ هما: خالدُ بنُ الوليد وعياضُ بنُ غَنم.

كانَ خالد يستريحُ بعدَ انتهاءِ حروبِ الرِّدَّةِ في «الأنباج» مع عائلتِه. كمَا كانَ عياضُ في «الفرض» بينَ النباج والحجاز.

وكَتَبَ أَبو بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ إلى خالد بنِ الوليد يَقولُ: «إنَّ الله فَتَحَ عليكَ. فسِرْ إلى العراقِ وابْدَأْ بفرج[1] أهلِ السِّنْدِ

(١) فرج: ميناء بحري. ثغر.

والهندِ حتى تَلْقى عياضاً. وتَأْلَف أهْلَ فارس ومن كـانَ في مُلكهم.»

ثم كتَبَ إلى عياض بنِ غـنـم يقول:

«سِرْ حتى تأتِيَ المُصَيَّخَ فابْدأ بها ثم ادْخُل العراقَ من أَعْلاها وعارق حتى تَلْقى خالِداً. وأذنا لمن شاءَ بالرُّجوعِ ولا تَسْتَفْتِحا بمتكارهٍ. ثم استبـقـا إلى الحيرة فـأَيّكُما سبقَ إلى الحيرة فهو أَميرٌ على صاحبِهِ ـ وإذا اجتمعتمـا بـالحيرة وقـد فَضَضْتُما[1] مسالِحَ[2] فارس وأمِنْتُما أَنْ يُؤتى المسلمونَ من خَلْفِهِمْ فَلْيَكُنْ أحدكما رِدْءاً[3] للمسلمِينَ ولصاحبِهِ بـالحيرة ولْيَقْتَحِم الآخَر على عدُوِّ الله وعَدُوِّكُم من أهلِ فارِسَ دارهمْ ومُسْتَقرّ عِزِّهِمْ: المدائن. وجالدوهُم عمّا في أَيْديهِمْ واسْتَعينوا بالله واتّقوهُ وآثِروا أَمْر الآخِرَةِ على الدُّنيا يَجْتَمِعا لكُمْ، ولا تُؤْثِـروا الدُّنيـا فَتُسْلبوهُما. واحْذروا مـا حذَّرَكُـم الله بِتَـرْكِ المَعاصي ومُعاجَلَةِ التَّوْبَةِ، وإيّاكُمْ والإصْرار وتأخير التَّوبة.»

خطةٌ رائعةٌ تلكَ التي رسَمَها أَبو بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ، يضَعُ بها قواتِ الفرسِ غربي الفراتِ بَيْنَ فَكَّيْ كماشةٍ بحيثُ تواجِهُ هـذهِ القوات أَحَـد الجيْشَيْنِ وهي مهدَّدَةٌ من خَلْفِهـا بالجيشِ الثّاني.

---

(١) فَضَّ: احتل ـ كسر.

(٢) مالح: قلاع وحصون.

(٣) ردءاً: عوناً.

وبدأ خالدُ فَوْرَ تَلَقّيهِ أَمْرَ الخليفة بحَشْد قواتِه وتنظيمِ جَيْشِهِ واخْتيار أمراءِ جنْدِهِ. وسارَ مسرعاً لملاقاةِ المُثّنى بنِ حارثة الذي وَرَدُه أَمْرٌ من الخليفَةِ بالقِتالِ تَحْتَ إمرة خالِد بنِ الوليد جاءَ فيه:

- «إني قدْ ولَّيْتُ خالدَ بنَ الوليد فكُنْ معَهُ.»

أمّا عياضُ بنُ غنم فقد جَمَعَ جيشَهُ وانْطَلَقَ نحو دومةِ الجندل.

باشَر خالدُ فتوحاتِهِ فوْرَ وصولِهِ إلى العراق. وكانَ النَّصْرُ يُحالِفُه في كُلِّ معاركه. وبَعْدَ كُلِّ معركةٍ كانَ يُرْسِلُ ببشارةِ النَّصْرِ إلى أَبي بكرٍ رَضِيَ الله عنْهُما. ثم يتَلَقّى منهُ الأوامِرَ في خطواتِهِ المُقْبِلة.

وفَتَح خالِدُ بنُ الوليد «الأبلَّةَ» - التي عادَتْ وسقطَتْ بأَيْدي الفرسِ واسْتَرَدَّها عتبةُ بنُ غزوان - ثم «المذار» «فالولجة» و«اليس» و«أمغيشيا» و«المقر» حتى احْتَلَّ «الحيرة.»

وفي الحيرة جاءَهُ كتاب عياض يطلُبُ مساعدَتَهُ في فتْحِ دومةِ الجندل لقوَّةِ المشركين فيها. فذهَبَ إليه وساعَدَ في فتحِ دومةِ الجندِل وتَرَكَ عياضاً يَدْخُلها.

واسْتَقَرّ خالدُ بنُ الوليد في «الحيرة» وجعَلَها مرْكزاً لقيادَتِه وهو يَضَعُ الخُطَطَ لفتح المدائن عاصمةِ كسْرى ملكِ الفرس.

في تلك الأثناءِ تَلَقّى خالدُ بنُ الوليد من الخليفة أبي بكر الصدّيق رَضِيَ الله عَنْهُ أمراً بالتوجُّه إلى جبهة الشّامِ لحاجتِها إليهِ. وسنَعْرِضُ لذلك فيما بعد.

٨ ـ فَتْحُ الشّام

كانَتْ أخبارُ الفتوحِ في العراق تأْتي إلى أَبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ وهو يفكِّرُ بتوجيهِ المسلمينَ نحو بلادِ الشَّام بعد أَنْ وعَدهُمُ الله بالنَّصْرِ. وبعدَ فتحِ الحيرةِ قَدِم عليهِ شرحبيلُ بنُ حسنَة ببشارةِ النَّصْرِ وبخمس الغنائِم.

بعدَ مضيٍّ أيامٍ عدةٍ على مقْدَمِ شرحبيل، أَتى إلى مجلس أَبي بكرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ وقال له:

ـ «يا خليفَة رسولِ الله ﷺ...

أَتُحَدِّثُ نَفْسَكَ انَّكَ تَبْعَثُ إلى الشامِ جُنْداً؟»

أجابَ:

ـ «نعَمْ قد حدَّثْتُ نَفْسي بذلكَ وما أَطْلَعْتُ عليهِ أحداً. وما سأَلْتَنِي إلاّ لشيء.»

قال شرحبيل:

ـ «إنّي رأَيْتُ يا خليفَة رسولِ الله ﷺ فيما يَرى النائِمُ كأنَّكَ تَمْشي في الناس فوْقَ خَرْشَفَة[1] من الجبل لا يُسْتَطاعُ أَنْ

(١) خرشفة: أرض وعرة.

يُمْشَى فيها. ثم أَقْبَلْتَ تَمْشي حتى صَعِدْتَ قُنَّةً[1] من القنان العاليةِ فأَشْرَفْتَ على الناسِ وَمَعَكَ أصحابك. ثم إنَّكَ هَبطْتَ من تلكَ القنانِ إلى أرضٍ سهلةٍ دمنةٍ[2] فيها الزَّرْعُ والقُرى والحصون. فقلْتَ للمسلمين: شُنّوا الغارَة على أعْداءِ الله وأَنا ضامِنٌ لكُمْ بالفتح والغنيمة. فشدَّ المسلمونَ وأَنا منهمْ ومعي رايَة. فتوجَّهْتُ بها إلى أهلِ قريةٍ فسأَلوني الأمانَ فأَمَّنْتُهُمْ. ثم جِئْتُ فأَجِدُكَ قد انْتَهَيْتَ إلى حصنٍ عظيمٍ. ففتَحَ الله لكَ والقوا إليكَ السلمَ. ووضَعَ الله لكَ مَجْلساً فَجَلَسْتَ عليهِ. ثم قيلَ يفتح الله عليكَ وتُنْصَر فاشْكُرْ رَبَّكَ واعْمَلْ بطاعَتِهِ ثمَّ اقْرَأْ: ﴿إذا جَاء نصر الله والفتح ورأَيْتَ الناسَ يدخلونَ في دينِ الله أَفْواجاً فَسَبِّحْ بحمد رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إنَّهُ كانَ تَواباً﴾ ثم انْتَبَهْتُ.

فقالَ لهُ الخليفة:

ـ «نامَتْ عَيْناكَ. خيراً رأيْتَ وخيراً يكونُ إنْ شاءَ الله».

ودَعا أبوبكرٍ رَضِيَ الله عنهُ مجْلِسَ الشورى المؤلَّفَ من: عمر بنِ الخطاب، وعثمان بنِ عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بنِ عُبَيْد الله والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بنِ عوف، وسعدِ بن أبي وقاص، وأَبي عبيدة

---

(١) قُنَّة: مرتفع من الأرض.

(٢) أرض دمنة: أرض فيها سواد وزبل.

ابنِ الجـراح، وعبد الله بن أبي أوفى الخـزامي، وسعيد بنِ زيدٍ، ووجوه المهاجرينَ والأنصار رضِيَ الله عنهُمْ أَجْمَعين، إلى اجتماعٍ خاصٍّ وقالَ لهُمْ:

ـ «إنَّ الله تبارَكَ وتَعالى لا تُحْصى نِعَمُهُ ولا تبْلُغُ الأعمالُ جزاءَها. فَلَه الحمْد كثيراً على ما اصطنعَ عندَكُمْ من جَمْعِ كَلِمَتِكُمْ، وأَصْلَحَ ذاتَ بينِكُمْ وهَـداكم إلى الإسلام ونَفى عنكُمُ الشيطانَ، فليسَ يَطْمَعُ في أَنْ تُشْرِكُوا بالله ولا أَنْ تَتَّخِذُوا إلهاً غَيْرَهُ. فالعَرَبُ اليوم أمةٌ واحدةٌ بنو أَبٍ وأُم.

وقد أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَنْفِـرَكُمْ(١) إلى الرومِ بالشامِ ليؤَيِّدَ الله المسلمينَ ويجعَلَ كلمتَهُ العليا، مع أَنَّ للمسلمين في ذلكَ الحظّ الـوافر. فمَنْ هلَكَ هلَكَ شهيـداً. وما عنـدَ الله خيرٌ للأبرار. ومن عاشَ عاشَ مدافِعاً عن الدين مُسْتَوْجِباً على الله عزَّ وجلَّ ثـوابَ المجاهدين.

هذا رأيي الذي رأَيْتُ فَلْيُشِرْ عليّ كلُ امرىءٍ بمبلغِ رأْيِهِ.»

وبـدأ كـلُّ واحـدٍ من الحاضـرينَ يُدْلي بـرَأْيِهِ ويشيـرُ بنصيحَتِه. وكانَ هناكَ رأيان حولَ فتح بلاد الشام:

الرأيُ الأول: القائـلُ بأنْ يُـرْسَلَ جيشٌ كبيـرٌ حاشـدٌ ويباشِرَ الفتوحَ فوْرَ وصولِه إلى هناكَ.

---

(١) استنفر: حث على القتال.

والرأيُ الثاني: القائل بأَنْ يتبع المسلمونَ في فتْح بلاد الشام نَفْسَ الطريقةِ التي اعْتمدَها أبو بكرٍ رضِيَ الله عنهُ في فتح بلادِ العراق، وهيَ إرْسَالُ جيوشٍ متعدِّدَةٍ إلى جهاتٍ متفرِّقَةٍ وإمْدَادُهَا بالمتطوِّعينَ تِباعاً.

وتَغلَّبَ الرَّأْيُ الثاني. وكانَ الإمامُ عليٌّ كرَّمَ الله وجْهَهُ طيلةَ المناقشةِ صامِتاً فالْتَفَتَ إليهِ أَبو بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ وقالَ:

ـ «ما تَرى يا أبا الحسن؟...»

قال الإمامُ علي:

أَرى أَنّكَ رجلٌ مبَارَكُ الأمْرِ ميمونُ النقيبة[1]. وإنَّكَ إنْ سِرْتَ إليهِمْ أَوْ بعثْتَ إليهِم نُصرتَ إنْ شاءَ الله.»

فقال الخليفة:

ـ «بشَّرَكَ الله بخير. فمِنْ أَيْنَ علِمْتَ هذا؟.»

قال:

ـ «سمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

ـ لا يزالُ هذا الدينُ ظاهِراً على كلِّ من ناوأه[2] حتى يقومَ الدينُ واهلُه ظاهرَيْن.»

فقالَ الخليفة:

---

(١) ميمون النقيبة: مبارك النفس.

(٢) ناوأه: عاداه وخاصمه.

ـ «سبحان الله ما أَحْسَنَ هذا الحديث. لقد سَرَرْتَني سرَّكَ الله في الدُّنيا والآخرة.»

وتمَّتْ دعوةُ المسلمينَ إلى التطوُّع. وتجهَّزَ أَوَّلُ جيش عُقِدَ لواؤه لخالد بن سعيد وانْطلقَ نَحو الشّام، إلاّ أنَّهُ لم يُوَفَّقْ في قيادَتِهِ فاسْتَرَدَّ منهُ أبو بكرٍ رضي الله عنهُ اللِّواءَ ثم جهَّز أربعة جيوشٍ أمَّرَ عليها:

يـزيد بن أبي سفيان، وأَبا عبيدةَ بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة.

وبعَثَ الخليفةُ برسائِلَ إلى العربِ وأهـلِ اليمن يطلُبُ مِنْهُمُ التطوُّعَ. وبدأَتِ الحشودُ تأتي إلى المدينةِ المنوَّرَة ملبِّيَةً نداءَ الجِهاد.

واكْتَمَلَ جيشُ يزيد بنِ أَبي سفيان. فَعَقَـدَ لهُ الخليفـةُ اللواءَ. ولما أَزفَتْ ساعَةُ الخروجِ رِكِبَ يزيدُ على فَرَسِهِ وسارَ الخليفةُ إلى جانِبِهِ يُوَدِّعُهُ فقالَ يزيد:

ـ «يا خليفَة رسولِ الله...

إمّا أَنْ تَرْكَبَ وإمَّا أَنْ تأْذَنَ لي فَأَمْشي مِعَكَ. فإنّي أَكْرَهُ أَنْ أَرْكَبَ وأَنْتَ تمشِي.»

فقالَ أَبو بكر:

ـ ما أَنا براكب. وما أَنْتَ بنـازِلٍ. إنّي أَحْتَسِبُ خُطَاي هذهِ في سبيل الله.»

ومَشى معَهُم نَحو ميلَيْنِ فقيلَ لهُ:

ـ «يا خليفَة رسولِ الله لو انْصَرَفْتَ.»

قال:

ـ لا.. إنّي سمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل الله عزَّ وجلَّ حَرَّمَهُما على النار».

وتابَع يوصي يزيدَ قائلاً:

ـ.. يا يزيد...

إنّي أوصيكَ بِتَقْوى الله وطاعَتِهِ والإيثار لَهُ والخوفِ مِنْهُ. وإذا لقيتَ العدُوَّ فأَظْفَرَكُمُ الله بهِمْ فلا تَغْلُلْ[1] ولا تُمَثِّلْ ولا تَغْدرْ ولا تَجْبُنْ. ولا تَقْتلوا وليداً ولا شيخاً كبيراً ولا امْرأةً، ولا تحْرِقُوا نخلاًولا تُفْسِدوه، ولا تَقْطَعوا شجرةً مثْمِرَةًولا تَعْقروا[2] بهيمةً الا لمأكلة..

وإذا لقيتُمُ العدُوَّ منَ المشركينَ إنْ شاءَ الله، فادْعوهُمْ إلى ثلاثِ خصال. فإنْ أَجابوكُمْ فاقْبلوا منهم وكُفّوا عنْهُم. اُدْعوهُمْ إلى الإسلام فإن هُمْ أجابوكُمْ فاقْبَلوا مِنْهُم وكُفّوا عَنْهُمْ، ثم ادْعوهم إلى التحوُّلِ من دارِهِم إلى دار المُهاجِرين. فإنْ هُمْ فَعَلوا فأخْبروهم أَنَّ لهُمْ مِثْلَ ما

---

(١) لا تغلل: لا تخن في مغنم.

(٢) تعقروا: تذبحوا.

للمهاجرينَ وعليْهِمْ ما عَلى المهاجرين. وإنْ هُمْ دخَلوا في الإسْلامِ واخْتاروا دارهُمْ على دار المُهاجرين فأَخْبروهُمْ أنَّهم كأعرابِ المسلمين يَجْري عليهِمْ حكْمُ الله الذي فُرِضَ على المؤمنين، وليس لهُمْ في الفيء والغنائمِ شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا أن يدخلوا في الإسلام فادعوهم إلى الجزية فإنْ هُمْ فعَلوا فاقْبَلوا منهم وكُفّوا عَنْهُم. فإنْ هُمْ أبوا فاستعينوا عليْهِمْ بالله فقاتِلوهُمْ إنْ شاءَ الله. ولَيَنْصُرَنَّ الله من يَنْصُرُهُ ورسله بالغيبِ.»

وتوالى بعدَ ذلكَ إرْسالُ الجيوشِ. وكانَ القائِدَ العام لتلكَ الجيوشِ متى اجْتَمَعَتْ أَمينُ الأمَّةِ أَبو عبيدَة بنُ الجراحِ. وباشَرَ يزيدُ فتوحَهُ فكانَتْ «العربة» و«الداثِنة» أَوَّلَ مدينَتَيْنِ تفْتحانِ في بلادِ الشام.

ولما عَلِمَ هرقلُ ملكَ الرومِ بأمْرِ الجيوشِ الإسلاميَّةِ أَخَذَ يحشُدُ حشْداً كبيراً من الرومِ ومِنَ النّصارى العرَبِ الموالين لهُمْ: فكتَبَ أبو عبيدة إلى أَبي بكرٍ رَضِيَ الله عنه يقول:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم.

أَمّا بعد. فإنَّ الرومَ وأهلَ البلدِ ومن كان على دينِهِمْ منَ العربِ قد اجتمَعوا على حرب المسلمين. ونحْنُ نرجو النَّصْرَ وإنْجازَ موعود الرَّبِّ وعادتِهِ الحُسْنى. أَحْبَبْتُ إعْلامَكَ ذلكَ لترى رأْيَكَ إنْ شاءَ الله والسَّلام.»

وفكَّرَ أبو بكرٍ رضِيَ الله عنه بالخطوة المقبلة. فرأى أنَّ معظَم العراق قد فُتِحَ. وأَدْرَكَ أَنَّ وجودَ خالِد بنِ الوليد في جبهةِ الشّام هامٌّ وضروريٌّ. فكتَبَ إليهِ يأمُرُهُ بـالتَّوَجُّـهِ إلى هناكَ ويَتَوَلّى القيادَة العامَّة للجيوشِ الإسلاميّة:

- «سِـرْ بنصفِ النّاسِ حتى تـأْتِيَ جمـوعَ المسلمينَ باليرموك. فإنَّهُم قد شجوا وأَشجوا[1].

فليهنك أَبا سليمان النيَّة والحظوة. فأَتْمِمْ يُتمم الله لكَ. ولا يدخُلَنَّكَ عَجَبٌ[2] فتَخْسَرَ وتُخْذَل،[3] وإيّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بعملٍ فإنَّ الله لَهُ المنُّ وهو وليُّ الجزاء.

دعِ العراقَ واخْلُفْ أَهْلَهُ فيهِ الذين قَدمْتَ عليهم، وهُمْ فيهِ، ثم امْضِ مخففاً في أَهْلِ قوةٍ مِنْ أصحابِنا الذين قَدِموا معَكَ العراقَ من اليمامةِ وصَحِبوكَ في الطريق وَقَدِموا عليكَ من الحجازِ حتى تأتِيَ الشامَ فتَلْقَى أَبا عبيدةَ بنَ الجراحِ ومن معَهُ من المسلمين.

وإذا التقيتُم فأَنْتَ أميرُ الجماعة. واستخلف على العراق المُثَنّى بنَ حارثة في النصف الباقي. ولا تأخُذَنَّ نجداً إلا

(١) شجوا وأشجَوا: تعبوا وأتعبوا.

(٢) داخله العجب: اغتر وفاخر.

(٣) تخذل: تهزم.

خلَّفْتَ له نجداً. فإذا فتَح الله عليكُمْ فارْدُدْهُمْ إلى العراق وأَنْتَ معهُمْ ثم أَنْتَ على عملِكَ.

والسَّلامُ عليكَ ورحمةُ الله.»

وقَدِمَ خالدُ إلى جبهةِ الشامِ منفِّذاً أوامرَ الخليفة. فقَطَعَ الصحْراءَ وباشَر فتْحَ «تدمر» ثم«القريتين» والْتقى بعدَ ذلكَ بالجيوشِ الإسلاميّة فوَحَّدَها تحت قيادَتِه وفتَح «بصرى» في حوران ثم «اجنادين» و«دمشق» و«حمص» حتى كانَ الاستعدادُ الضخم لاكبرِ معركةٍ في التاريخ الإسلامي: معركةِ اليرموك.

٩ ـ وفاتُه

بَيْنما كانَ المسلمونَ يستعِدّونَ لمعركةِ اليرموك، مَرِضَ الخليفةُ أَبو بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ مرضاً أَقْعَدَهُ في منزلِهِ خمسَةَ عشَر يوماً كانَ يأمُر خلالَها عمرَ بنَ الخطابِ رَضِيَ الله عنهُ بالصَّلاةِ في الناس.

وسَبَبُ مرض أَبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ ما رُوِيَ عن لسانِ السيّدة عائشة أُمِّ المؤمنينَ رَضِيَ الله عنها وعن لسانِ ابْنِهِ عبد الرحمن من أَنَّهُ اغْتَسَلَ في يومٍ بارِدٍ فأصيبَ بالحُمّى ولزِمَ دارَهُ.

وكانَ طيلةَ مرضِهِ يفكّر بشؤونِ المسلمينَ وكَيْفَ سيكونُ

حالُهم بعدَ وفاتِهِ. فدعا عثمانَ بنَ عفان رَضِيَ الله عنهُ وقالَ لَهُ اكتب:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم.

هذا ما عَهِدَ أبو بكرِ بن أَبي قحافَة في آخرِ عَهْدِهِ بالدُّنيا خارجاً منها، وعِنْدَ أَوَّلِ عَهْدِهِ بالآخرةِ داخلاً فيها حيثُ يؤمِنُ الكافرُ ويوقِنُ الفاجِرُ ويَصْدُقُ الكاذب.

إنّي اسْتَخْلَفْتُ عليْكُمْ بَعْدي عمَر بنَ الخطاب فاسْمَعوا لَهُ وأَطيعوا. وإنّي لم آلُ الله ورسولَهُ ودينَهُ ونَفْسي وإيّاكُمْ خيراً. فإن عدلَ فذلِكَ ظنّي بهِ وعِلْمِي فيهِ. وإنْ بدَّلَ فلكلِّ امرىء ما اكْتَسَبَ مِنَ الإثْمِ. والخير أَرَدْتُ ولا أَعْلَمُ الغَيْب. وسيَعْلَمُ الذينَ ظَلَموا أَيَّ منقلب يُنْقَلبون.

والسَّلام عليكُمْ ورحْمةُ الله وبركاتُه».

واشْتَدَّ عليه المرض، وبدأ يُعاني سَكَراتِ الموتِ وابْنَتُهُ السّيدة عائشة أُمُّ المؤمنينَ رَضِيَ الله عنهُما بجانِبِهِ فلما رأَتْهُ على حالِهِ تمثَّلَتْ بهذا البيتِ مِنَ الشِّعر لحاتم:

لَعَمْـرُكَ مـا يُغني الثـراءُ عنِ الفتى
إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بِهـا الصَّدْرُ

فنظَر إلَيْها أبوها كالغضبانِ ثمَّ قال:

ـ «ليسَ كذلكَ يا أُمَّ المؤمنين. ولكنْ: «إذا جاءَتْ سكرة الموت بالحقِّ ذلك ما كنت منه تحيد.»

وكان آخرُ ما تَكَلَّمَ بهِ أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه:

«ربِّ توفّني مسْلماً وأَلْحقْني بالصّالحين.»

وكانَتْ وفاتُـه يومَ الاثنين في الحـادي والعشرين من جُمادى الآخرة في السنة الثالثة عَشْرَة للهجرة وهو في الثالثة والسّتينَ من عمره. وتوفِّي مساءً بعدَما غـابَتِ الشمسُ ودُفِنَ ليلاً، وتولَّتْ زوْجتُه اسماءُ بنتُ عميس غَسْلَهُ. وحُمِلَ على السرير الذي حُمِل عَليه رسولُ الله ﷺ ودُفِنَ إلى جواره في حجرةِ ابْنَتِهِ أُمِّ المؤمنين.

وقد أَبَّنَهُ الإمامُ عليٌّ كرَّمَ الله وَجْهَهُ بقَوْلِهِ:

«رَحِمَكَ الله أَبا بكـرٍ. كنْتَ والله أَوَّلَ القوم إسْـلاماً وأَخْلَصَهُمْ إيماناً، وأَشَدَّهُمْ يقيناً، وأَعْظَمَهُمْ غنًى، وأَحْفَظَهُمْ على رسولِ الله ﷺ، وَأَحْدَبَهُمْ على الإسلامِ وأَحْماهُمْ عن أَهْلِهِ، وأَنْسَبَهُمْ برسولِ الله ﷺ خُلقاً وفَضْلاً وهَدْياً وسَمتـاً[1]. فجزاكَ الله عن الإسلامِ وعن رسـولِ الله وعن المسلمين خيراً.

صـدَّقْتَ رسولَ الله حينَ كـذَّبَهُ النـاسُ وواسَيْتَهُ حينَ بَخِلوا. وقُمْتَ مَعَهُ حينَ قعدوا وسمّاك الله في كتابِهِ صدِّيقاً فقالَ: «والذي جاء بالصدق وصدق به» يريد محمداً ويريدُكَ. كنْتَ والله للإسْلامِ حصْناً وللكافرينَ ناكِباً ولم تَضْلِلْ حجتك

(١) سمت: طريق.

ولم تَضْعُف بصيرتُكَ ولم تَجْبُن نفْسُكَ. كالجبلِ لا تُحرِّكُهُ العواصفُ ولا تزيلُهُ القَواصِف. كنْتَ كما قالَ رسولُ الله ﷺ ضعيفاً في بَدَنِكَ، قوياً في دينِكَ، متواضِعاً في نفْسِكَ، عظيماً عندَ الله، جليلاً في الأرضِ، كبيراً عندَ المؤمنين. لم يكُنْ لأحدٍ عِنْدَكَ مَطْمَعٌ ولا هوى. فالضعيفُ عنْدَكَ قويٌّ، والقوِيّ عندَكَ ضعيف، حتى تأخُذَ الحقَّ من القوي وتأخذَهُ للضعيف. فلا حَرَمنا الله أَجْرَكَ ولا أَضَلَّنا بَعْدَكَ.»

وكأنَّما حبسَت المصيبةُ لسانَ عمر بنِ الخطاب رَضِيَ الله عنهُ، فأبَّنَهُ بايجازٍ حينَ دخَلَ عليه بَعْدَ مَوْتِهِ:

- «يا خليفةَ رسولِ الله. لَقَد كلَّفْتَ القَوْمَ بَعْدَكَ تعباً وولَّيْتَهُمْ نصباً[1]. فَهَيْهاتِ من شقِّ غبارِكَ فكيفَ اللِّحاقُ بك».

أما ابْنَتُهُ السيِّدة عائشة أُمُّ المؤمنينَ رَضِيَ الله عنها فقد أَبَّنَتْهُ بقولٍ فيه العاطفةُ والبرُّ والتسليمُ بأَمْرِ الله قالَتْ:

- «نَضَّرَ الله يا أَبَتِ وجْهَكَ، وشَكَرَ لكَ صالِحَ سَعْيِكَ. فقَدْ كُنْتَ للدُّنْيا مُذِلاًّ بإدْبارِكَ عنها. وللآخرة مُعِزّاً بإقْبالِكَ عليْها. ولئِنْ كانَ أَعْظَمُ المصائبِ بعدَ رسولِ الله ﷺ رزْءَكَ، وأكْبَرُ الأحداثِ بعدَهُ فَقْدَكَ، إنَّ كتابَ الله عزَّ وجلَّ ليعدُنا بالصَّبْرِ عنكَ حُسْنَ العوض. وأَنَا مُتَنَجِّزَةٌ مِنَ الله مَوْعِدَهُ فيكَ

(١) النصب: شدة التعب.

بالصَّبرِ عنك، ومُسْتَعينَةٌ كَثْرَة الاستغفارِ لَكَ. فسلَّم الله عليكَ توديعَ غير قالِيَةٍ لحياتِكَ ولا زارِيةٍ على القضاءِ فيكَ.»

١٠ ـ مناقبهُ.

تركَ أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنهُ إرْثاً كبيراً من المناقِبِ والأعمالِ الصالحةِ والآثارِ العظيمةِ في بناءِ الامبراطوريةِ الإسلاميَّةِ.

ففي فترةٍ زمنيةٍ لم تتجاوَزِ السَّنَتَيْنِ وبضعةَ اشهرٍ استطاعَ أَنْ يعيدَ توحيدَ الجزيرةِ العربية، ويباشِرَ الفتوحَ الإسلامية ويَنْشُرَ الإسلامَ في ربوع العالم.

وأَعْظَمُ مناقِبِ أَبي بكرٍ الصِّديق رَضِيَ الله عنهُ أَنَّهُ جَمَعَ القرآنَ الكريمَ في عهدِهِ. إنَّ بعدَ معركةِ اليَمامَةِ واسْتِشْهادِ الكثيرمن حفَظَةِ القرآنِ الكريم رأى الخليفةُ بناءً لإشارةِ أميرِ المؤمنينَ عمر بنِ الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُما، أَنْ يجمَعَ القرآنَ. فَطَلَبَ من زيد بنِ ثابت تنفيذَ ذلكَ الأمر. وفي ذلكَ قالَ الإمامُ عليٌّ بن أبي طالب كرَّم الله وَجْهَه:

ـ «رحمةُ الله على أَبي بكر. كانَ أَعْظَمَ الناسِ أَجْراً في جمع المصاحِف».

كما كانَ لهُ فضلٌ عظيمٌ في تأليفِ العرب بعدَ وفاة رسولِ الله ﷺ. فقد أَظْهَرَ قِمَّة التَّسَامُح بعدَ حروبِ الردَّةِ، وعَفا عن

كثيرٍ من المُرْتَدِّينَ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْعَفْوَ سيكونُ خير طريقةٍ لجَمْعِ الصفوف من جديد.

كما اسْتَوْحى في تسيير أمور الدَّوْلة الإسلاميَّة آياتِ القرآن الكريم فأَحاطَ نَفْسَهُ بمجلسِ شورى كانَ بمثابةِ الحكومةِ التي تُعاوِنُه.

وهو أَرادَ محاسبةَ الحاكِم من قبلِ الشَّعْبِ، وتلكَ طريقةٌ جديدةٌ في إدارةِ دفَّةِ الحكْمِ والديمقراطيَّةِ لم يَسْبِقْهُ إليها أَحَد. أَوَلَيْسَ هُو القائِل:

«أَطيعوني ما أَطَعْتُ الله ورسولَهُ. فإنْ عصيتُ الله ورسولَهُ فلا طاعة لي عليْكُمْ.»

. . . . . .

رَحِمَ الله أبا بكرٍ الصدِّيق رَضِيَ الله عنهُ.. فقد كانَ من الأعْمِدةِ الكبارِ من أعْمِدَةِ الصَّرح الإسْلامي العظيم.

المصادر والمراجع

١ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة : دار الكتاب العربي ابن الأثير

٢ ـ الإصابة في تمييز الصحابة : دار الكتب العلمية بيروت .
العسقلاني

٣ ـ البدية والنهاية : دار الكتب العلمية بيروت ابن كثير

٤ ـ تاريخ الطبري : دار الكتب العلمية بيروت الطبري

٥ ـ السيرة النبوية : دار الكتب العلمية بيروت ابن هشام

٦ ـ الصديق أبو بكر، دار المعارف . الطبعة الثامنة .
محمد حسين هيكل

٧ ـ صحيح البخاري : دار الكتب العلمية بيروت البخاري

٨ ـ الطبقات الكبرى دار الكتب العلمية بيروت ابن سعد

٩ ـ الطريق إلى المدائن : دار النفائس الطبعة السادسة ١٩٨٦
أحمد عادل كمال

١٠ ـ الطريق إلى دمشق . دار النفائس الطبعة الثالثة ١٩٨٥
أحمد عادل كمال

الفهرس

سلسلة أعمدة الإسلام

١ ـ أبو بكر الصدِّيق .
٢ ـ عمر بن الخطَّاب .
٣ ـ عثمان بن عفَّان .
٤ ـ عليّ بن أبي طالب .
٥ ـ عمر بن عبد العزيز .
٦ ـ سعد بن أبي وقَّاص .
٧ ـ طلحة بن عبيد الله .
٨ ـ الزبير بن العوَّام .
٩ ـ أبو عبيدة عامر بن الجرَّاح .
١٠ ـ عبد الرحمن بن عوف .
١١ ـ سعيد بن زيد .
١٢ ـ حمزة بن عبد المطلب .
١٣ ـ زيد بن حارثة .
١٤ ـ سالم مولى أبي حذيفة .
١٥ ـ عبد الله بن جحش .
١٦ ـ عتبة بن غزوان .
١٧ ـ عبد الله بن مسعود .
١٨ ـ المقداد بن عمرو .
١٩ ـ خبَّاب بن الأرتّ .
٢٠ ـ صهيب بن سنان الرومي .
٢١ ـ بلال بن رباح الحبشي .
٢٢ ـ عمار بن ياسر .
٢٣ ـ زيد بن الخطَّاب .
٢٤ ـ عثمان بن مظعون .
٢٥ ـ أبو سبرة بن أبي رهم الأسلمي .
٢٦ ـ سعد بن معاذ .
٢٧ ـ عبَّاد بن بشر .
٢٨ ـ محمد بن مسلمة .
٢٩ ـ عاصم بن ثابت .
٣٠ ـ خالد بن زيد .
٣١ ـ أُبي بن كعب .
٣٢ ـ عبد الله بن رواحة .
٣٣ ـ بشير بن سعد .
٣٤ ـ عبادة بن الصامت .
٣٥ ـ معاذ بن جبل .
٣٦ ـ أُسيد بن حضير .
٣٧ ـ العباس بن عبد المطلب .
٣٨ ـ جعفر بن أبي طالب .
٣٩ ـ أبو سفيان بن الحارث .
٤٠ ـ أسامة بن زيد .
٤١ ـ سلمان الفارسي .
٤٢ ـ خالد بن سعيد بن العاص .
٤٣ ـ أبو موسى الأشعري .
٤٤ ـ شرحبيل ابن حسنة .
٤٥ ـ عبد الله بن عمر بن الخطَّاب .
٤٦ ـ عبد الله بن حذافة .
٤٧ ـ عمير بن وهب الجمحي .
٤٨ ـ أبو ذرّ الغفاري .
٤٩ ـ الطفيل بن عمرو .
٥٠ ـ خالد بن الوليد .
٥١ ـ عمرو بن العاص .
٥٢ ـ سعيد بن عامر الجمحي .
٥٣ ـ نعيم بن مسعود .
٥٤ ـ المغيرة بن شعبة .
٥٥ ـ سلمةَ بن الأكوع .
٥٦ ـ أبو هريرة الدوسي .
٥٧ ـ حذيفة بن اليمان .
٥٨ ـ البراء بن مالك .
٥٩ ـ عبد الله بن سلام .
٦٠ ـ سماك بن خرشة .
٦١ ـ عياض بن غَنْم .
٦٢ ـ عمرو بن الجموح .
٦٣ ـ عمير بن سعد .
٦٤ ـ غالب بن عبد الله .
٦٥ ـ فرات بن حيَّان .
٦٦ ـ القعقاع بن عمرو .
٦٧ ـ يزيد بن أبي سفيان .
٦٨ ـ عكرمة بن أبي جهل .
٦٩ ـ حكيم بن حزام .
٧٠ ـ خُبيب بن عديّ .
٧١ ـ الربيع بن زياد .
٧٢ ـ سراقة بن مالك .
٧٣ ـ عبد الله بن الزبير .
٧٤ ـ أبو العاص بن الربيع .
٧٥ ـ زيد بن سهل .
٧٦ ـ عبد الرحمن بن أبي بكر .
٧٧ ـ مصعب بن عمير .
٧٨ ـ عبد الله بن العباس .
٧٩ ـ عديّ بن حاتم .
٨٠ ـ زيد بن ثابت الأنصاري .
٨١ ـ حبيب بن زيد .
٨٢ ـ ثمامة بن أثال .
٨٣ ـ ثابت بن قيس .
٨٤ ـ أنس بن مالك .
٨٥ ـ سهيل بن عمرو .
٨٦ ـ ضرار بن الأزور .
٨٧ ـ عبد الله بن عمرو بن حرام
٨٨ ـ عمرو بن معديكرب .
٨٩ ـ المثنَّى بن حارثة .
٩٠ ـ النعمان بن مقرِّن .
٩١ ـ عويمر بن مالك (أبو الدر
٩٢ ـ جرير بن عبد الله البجلي
٩٣ ـ سعد بن عُبادة .
٩٤ ـ مجزأة بن ثور .
٩٥ ـ الأقرع بن حابس .

8